27

جوانب مجهولة من حياة
عبدالعزيز الميمني الراجكوتي

الأستاذ الدكتورظهور أحمد أظهر

إنّ رحلتي الأخيرة إلى الإمارات العربية المتحدة، التي قمت بها في بداية شهر نوفمبر الماضي (١٩٩٩م)، واستغرقت أسبوعين تقريباً، قد كانت رحلة مفيدة ومثمرة جدًّا. فإضافة إلى المحاضرات والكلمات التي ألقيتها بجامعة الشارقة الفتية وكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، واللقاءات المتكررة المتجدّدة مع الإخوان والأصدقاء، تلك التي تركت ذكرياتٍ جميلةً عاطرة لن أنساها أبداً، وسوف تظل عالقة بذاكرتي مدى الحياة، فقد أتيح لي أن أزور (مركز جمعة الماجد بدبي)، ذلك الصرح الشامخ لثقافة العرب وتراثهم، بفضل نشاطاته المتنوعة ومرافقه العديدة المفيدة.. كما أتيح لي أن أتشرف بلقاء الإنسان العربي النبيل والتاجر العملاق والإداري الخبير الفذ الشيخ جمعة الماجد أبي خالد، حفظه الله ورعاه، الذي سمعت منه، خلال حديثي معه، كلمة لا تزال ترنّ في أذني، وأحبّ أن يسمعها ويطبقها على نفسه كلّ عربي ومسلم، لا بل كلّ إنسان نبيل، يريد الخير لنفسه ولأبناء جنسه من بني آدم، هي قوله الذي ردّ به على سؤال كان قد وُجه إليه من قبل السّفير البريطاني عن المبادىء التي

اتبعها والأسرار التي ساعدته على إنشاء الإمبراطورية التّجارية العملاقة في الإمارات وتطويرها، فقد ردّ عليه بقوله: ((قد التزمت في حياتي بمبدأين وهما: ((الأمانة والعمل الجادّ!!)). ومن المعلوم أنّ ذلك مماورثه المسلمون من سيرة رسولهم الصّادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم الّذي قال، وهو يأمر بذلك أمته: (إذا عمل أحدكم عملا فليتقنه) (١).

وأمّا لقائي مع الشّابّ العربي النبيل الأستاذ الدكتور نجيب عبدالوهاب، الأمين العام للمركز، والأستاذ الفاضل الدكتور حاتم صالح الضامن، فقد كان حديثاً ذا شجون، وعن شتى الشؤون، ومنها الحديث عن اللغة العربية وآدابها في شبه القارّة، وعن كتبها القيّمة النّادرة ومؤلّفيها الأعلام من تلك البلاد إضافة إلى كتب التراث الأخرى، مخطوطها ومطبوعها، ومظانّ وجودها، فجرى ذكر شيخي وأستاذي الأديب اللغوي العلامة عبدالعزيز الميمني، غفر الله له ورحمه و أجزل مثوبته، وكلّنا أبدى إعجابه بماقام به شيخنا وأستاذنا الميمني من خدمات جبّارة للغة العربية وآدابها،وفي مجال إحياء التّراث العربي الغالي خاصّة، فقد حقّق الأستاذ الميمني أكثر من ثلاثين كتاباً من أغلى كنوز التراث العربي، ومنها (سمط اللآلي شرح النّوادر والأمالي) لأبي علي القالي، رحمه الله، وخلال حديثنا عن الميمني جرى ذكر ما اتّهمه به بعضهم بالبخل والشح، ليس بماله فحسب بل بعلمه.. وما كان يمتلكه من الكتب، فدافعت عن الميمني، وتحدثت لهما عن أشياء لم يكونا يعرفانها، بل كانت لحظات مجهولة وجوانب خافية، لم يعرفها إلا من وثق به الميمني من أخص تلاميذه، فاقترح الدكتور حاتم، وألح علي في الاقتراح، أن أسجل معلوماتي عنه في مقالة، ليعرفهاقرّاء العربية المحبّون للميمني، المعجبون بما قام به من خدمات جبّارة للغة الضّاد.

والواقع أنني كنت أنوي أن أعدّ مقالة مفصّلة عن حياة الأستاذ الميمني بمدينة لاهور، حيث قضى بها أيّاماً طالباً منتسباً لجامعة بنجاب بمدينة لاهور، ثم عيّن فيها أستاذاً مرّتين: مرة قبل توظيفه بجامعة عليكرة الإسلامية في الهند في سنة ١٩٢٥م، ومرة ثانية بعد التقاعد، وفي أخريات حياته (من ١٩٦٤م إلى ١٩٦٦م). وهي مدة غير قصيرة، وحافلة بالأحداث والذكريات، لا بدّ من إبرازها وتسجيلها والإحاطة بها، إلا أنني لم أتمكن من ذلك على الرّغم من محاولاتي، وحالت دونها الأشغال الإدارية والأعمال الطارئة والأسفار النائية المتكررة، وما دام الموضوع واسع المجال، ويحتاج إلى وقت كثير وجهد كبير، نلقي الضوء على بعض اللحظات والجوانب المهمة المجهولة من حياة الأستاذ الميمني، وأتحف بها ((آفاق الثقافة والتراث))، مجلة مركز جمعة الماجد.

ولكن لا بدّ، قبل كلّ شيئ، أن نلمّ إلماماً بترجمة الميمني، لكي نأخذ عن شخصيته صورة و فكرة، ويسهل علينا فهم ماسيمرّ بنا من لحظات وجوانب من حياته، فقد ولد الأستاذ العلامة الشيخ عبدالعزيز ابن الحاج عبدالكريم بن عبدا لله في سنة ١٨٨٨م بمدينة (راجكوت) في إقليم (كاتياوار) على السّاحل الغربي للهند، وفي أسرة التجار العريقة (إذ قبيلة ميمن تعرف بمهنة التّجارة في شبه القارّة كلّها)، إلا أن والد الشّيخ كان قد نذر ابنه للدّراسات العربيّة والإسلاميّة، فأسلمه إلى الكتّاب حيث تعلّم القراءة والكتابة، كما تعرّفه الأطفال المسلمون من أبناء زمانه في وقته، وأحبّ الصبيّ العلم وألفه، مما جعل أباه يشجعه على ذلك، ويسمح له بأن يخرج في طلب العلم، فاتجه الميمني قاصداً مدينة دلهي العاصمة الهندية أوّلاً، ثم العواصم الثقافية الهندية الأخرى، التي كان آخرها مدينة لاهور، عاصمة

باكستان الثقافيّة وقلبها الخفّاق، حيث نال شهادة (فاضل اللغة العربية) من جامعة بنجاب بلاهور، فكان الأوّل في التّرتيب، وحقّق رقما قياسيّا في الامتحان. والجدير بالذكر أنّ شهادة ((فاضل اللغة العربية)) هي الشّهادة الأولى والأخيرة التي حصل عليها الأستاذ الميمني، ولم يحصل على أيّ شهادة أخرى غيرها، ولم يدخل أيّ امتحان غير ذلك الامتحان الوحيد ! ومن أشهر أساتذته الشيخ نذير أحمد الدهلوي، والشيخ محمد طيب المكي، وحسين بن محسن الأنصاري اليماني، رحمهم الله.

واختار الميمني مهنة التدريس، فعيّن مدرّساً للّغتين: العربية والفارسية بكلية بشاور الإسلامية، ثم مدرساً للّغة العربية بالكليّة الشّرقية لجامعة بنجاب بلاهور، ثمّ محاضراً فأستاذاً مشاركاً بقسم اللغة العربية لجامعة عليكرة الإسلامية في ١٩٢٥م حتى نال بها وظيفة الأستاذية ورياسة القسم، حيث استمر في خدمة العربية وآدابها بالجامعة إلى أن بلغ سن التّقاعد، فهاجر إلى باكستان في ١٩٥٣م ليصبح الرئيس المؤسس لقسم اللغة العربية بجامعة كراتشي، والمدير المؤسّس لمعهد البحوث الإسلامية فيما بعد، وأخيرا عرضت عليه الأستاذية والرياسة لقسم اللغة العربية بالكلية الشرقية لجامعة بنجاب بلاهور في ١٩٦٤م، ثم عاد إلى كراتشي في ١٩٦٦م، حيث قضى بها ما تبقى من حياته ووافته منيته في يوم الجمعة في السّادس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣٩٨هـ (٢٧ أكتوبر ١٩٧٨م)، وقد تجاوز التسعين من عمره.

وقد حقّق الأستاذ الميمني أكثر من ثلاثين كتاباً من التّراث العربي، كما ذكرنا، ومنها (سمط اللآلي)، وكان عضواً مراسلاً بمجمعي دمشق

والقاهرة، وله رحلات ثلاث إلى البلاد العربية والإسلامية، زار خلالها عدداً من العواصم الثقافية، واطّلع على خزائن كتبها، واتصل برجالها الكثيرين، وكان صديقاً حميماً للأستاذ العلامة أحمد تيمور باشا، والأستاذ محب الدين الخطيب، والشيخ أحمد شاكر، رحمهم الله، وقد ذكره الأستاذ الدكتور شاكر الفحام بقوله: ((كان الأستاذ عبدالعزيز الميمني الراجكوتي، رحمه الله، وأغدق عليه صوب رضوانه، من أفذاذ العلماء الأعلام في التمكّن من العربية وآدابها وعلومها، أحبّها حبّا ملك عليه نفسه، وتغلغل في السواد من قلبه، ونبغ فيها نبوغ عابد متألّه قد تبتّل في محاريبها، وأراح في جنباتها، فتعرف بيانها، وتذوّق سحرها وإعجازها، ووقف على أسرارها ودقائقها، وأحاط خبراً بأدبائها وشعرائها وعلمائها ورجالها، وقضى حياته يدرس تراثها العظيم ويدرّسه، ويسعى لتحقيقه ونشره السّعي الحثيث، ويرشد من يتوسم فيه الخير إلى نفائسه وذخائره، ويذود عن حماه بالكلمة الصّادقة الخالصة تخرّصات ذوي الأهواء والأغراض، دائب العمل فيما نصب نفسه له، يبذل أقصى ما في وسعه، ويوالي نصحه، لا يني ولا يفتر، وبلغ به حبّ العربية والهيام بها أنه كان يحس نفسه غريباً بين أهله، إذ قال: ((وا الله المسؤول أن يجعل سعيي مشكوراً بين أدباء البلاد العربية، فهم غرضي من إنشائها في العربية، أنا بين أهلي ووطني كأجنبي عنهم!(((٢)

وأمّا صلتي بالأستاذ عبدالعزيز الميمني، رحمه الله، فإنّها ترجع ، فيما أتذكره، إلى خمسينات الميلادية، وذلك في سنة ١٩٥٦م حين انتهيت أو كدت أنتهي من دراساتي الثانوية، وأنقطع إلى دراسة اللغة العربية وإتقانها، وأطّلع على الوسائل المعينة المتوفرة لها، فبدأت أبحث عن طرق فعّالة مؤدية إلى ذلك من الإذاعات العربية والكتب المفيدة، فصادفت كتاباً صغيراً عند

بعض باعة الكتب العربية في بلدي، هو كتاب (لغات جديدة) (٣) للشيخ الشّريف سليمان الندوي (٤) ، رحمه الله، من كبار علماء (ندوة العلماء) في الهند، والكتاب يضمّ قدراً كبيراً من المفردات والتراكيب اللغوية الجديدة باللغة العربية، كانت متداولة بين الأدباء والشعراء والكتاب والصحفيين العرب المعاصرين في ذلك الوقت إضافة إلى مقالة مفيدة باللغة الأردية بقلم الأستاذ الجليل الشيخ (مسعود عالم) الندوي، رحمه الله، جاءت كمقدمة أو تمهيد للكتاب، وعنوانها: ((مفردات اللغة العربية وتراكيبها المعاصرة))، وقد تناول فيها الكاتب تطوّر اللغة العربية ومكانتها بين لغات العالم ووضعها الراهن في العالم العربي آنذاك، إضافة إلى تعريف بعض الكتاب والأدباء المعاصرين، فقسّمهم الشيخ الندوى إلى ثلاث طبقات تبعاً لثقافتهم الأصلية ومكانتهم الأدبية، فعد الأستاذ الميمني من الطبقة الثانية للكتّاب العرب، على الرّغم من كونه أعجميّاً غير عربي، فقال: ((ومن الجائز لنا أن نعدّ من هذه الطبقة الثانية للكتاب العرب الشيخ عبدالعزيز الميمني، من علماء العربية وأساتيذها في بلدنا، فعلى الرغم من أنه من أصل أعجمي غير عربي، إلّا أنه، بحكم كونه لغويّاً كبيراً وأديباً بارزاً وعالماً متبحراً، يحتلّ مكانة عالية بين كتّاب العربية وأدبائها، ويمتاز بينهم بأسلوبه اللغويّ والأدبيّ!))(٥)

فقد كانت هذه هي الوهلة الأولى التي عرفت فيها الأستاذ الميمني، وأعجبتني مكانته المرموقة بين فطاحل العروبة وبلغائها من أمثال الأستاذ أحمد الإسكندري، والأستاذ محبّ الدّين الخطيب، والأستاذ أحمد حسن الزيات، رحمهم الله، ولم أكن أتوقع، في تلك الآونة، أنني سوف أراه

يوماً فضلاً عن التتلمذ عليه، أو الاستفادة منه، وربما ذهب بي الظنّ إلى أنّ الرجل قد توفاه ا لله إلى رحمته.

ثم مرت الأيّام ، وتقادم بي العهد، وتدرجت في مراحل التعليم المختلفة، كلها بالانتساب، مركّزاً على اللغة العربية، ونسيت، أو قل تناسيت، الميمني والكتاب الذي عرفني به، حتى إنني أنهيت دراساتي الجامعية، وحصلت على شهادة الماجستير، وعينت محاضراً للغة العربية في جامعة البنجاب بقسمها العربي في غضون سنة ١٩٦٣م!

وفي سنة ١٩٦٤م كان الدكتور (سيد عبدا لله) عميد كلية الدّراسات الشّرقية آنذاك يحتل أيضاً منصب رئيس القسم العربي، وهو من تلاميذ الأستاذ الميمني البارزين الأفاضل، وله أثر فعال وخدمات جبارة في مجال التربية والتعليم للبلد، وأراد الدكتور سيد أن يقوم بدوره للنهوض باللغة العربية (لغة القرآن الكريم ولغة الحديث النبوي والمعارف الإسلامية ولغة الشعب العربي الشقيق) في باكستان، التي أنشئت من أجل الإسلام وباسم الإسلام، فاعتزم على عقد مؤتمر اللغة العربية على المستوى الدولي تحت إشراف القسم العربي بالتعاون مع الحكومة والشعب الباكستاني، ووجه الدعوة إلى السفارات العربية بكراتشي راجياً منها أن ترفع القضية إلى حكوماتها، أو ترشح من يمثّل بلادها في المؤتمر... كما وجه الدّعوة إلى أعيان الدولة وعلماء العربية في باكستان، وكان اسم الأستاذ عبدالعزيز الميمني على رأس قائمة المدعوين! فلا تسأل عن فرحتي و سروري بهذا النبأ المفاجئ المدهش أهذا هو الميمنى- نفسه الذي عاش في أحلامي منذ قرأت عنه في مقدمة ذلك الكتاب قبل عشر سنوات تقريباً، فأعجبت به، وظننت

أنه قد أصبح من الماضين الغابرين؟ هل سأراه على أرض لاهور بعيني رأسي؟ هل سأرى إمام العربية في شبه القارة وألتقيه وأتحدث إليه؟ ذلك الرجل العظيم الذي أعجبت به، وأحببته قبل أن أراه أو ألتقيه وأتحدث إليه!

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكّنا!

ولقد كانت هذه مفاجأة غريبة مدهشة بالنسبة إليّ، وذلك لأنني لم أعرف شيئاً عن المراحل التي مرّ بها الأستاذ الميمني خلال السّنوات العشر من إحالته إلى المعاش، وهجرته من الهند إلى باكستان،وتعيينه أستاذاً ورئيساً للقسم العربي بجامعة كراتشي أو مديراً مؤسساً لمعهد البحوث الإسلامية بمدينة كراتشي، التي تبعد أكثر من ألف ميل من مدينة لاهور، وكانت وسائل الإعلام في العالم الإسلامي ولا تزال تضنّ بصفحاتها على العلم والعلماء! فيا للفضيحة!

على كلّ حال، لم أعرف شيئاً عن الميمني، وعن وجوده في باكستان، إذ كنت حديث العهد بالجامعة، غريباًعن مصلحة التربية والتعليم وعن رجالها الأفاضل، وقد أكون مقصّراً في ذلك، ولكنني صادق فيما أقول!

وقد كنت أحد أعضاء لجنة الاستقبال للمؤتمر، وكان من مهمتها أن تستقبل الضيوف الكرام والمندوبين الأفاضل المتوافدين من خارج لاهور بالقطار أو بالطائرة للمشاركة في مؤتمر اللغة العربية الدولي، وانقسمت اللجنة إلى القسمين: أحدهما لاستقبال القادمين بالقطار، والثاني لاستقبال من يأتي بالطائرة، ولم يسعفني حظي لأن أكون في اللجنة التي سوف تستقبل الأستاذ الميمني، وأردت أن أغير عضويتي إلا أنني امتنعت عن ذلك،

ورضيت بماقدّر لي من المهمة، علماً بأن الأستاذ الميمني سيبقىفي لاهور أكثر من أسبوع، ومن ثمّ ستتاح لي فرصة لقائه غير مرّة، وفوق ذلك كلّه، فإنه لايعرفني ولاأعرفه، إذاً لا فائدة من تغيير العضوية، وغاية ما في الأمر أنني سأحرم من استقبال الأستاذ في المطار، ولن يحول بيني وبينه من الوقت إلالحظات قصيرة قليلة تمضي وتمر بين المطار والحرم الجامعي، فذلك ما منعني عن فكرة التغيير والتحوّل من قسم إلى آخر للجنة الاستقبال، وقنعت بما قدّر الله لي، وأخذت أنتظر اللحظة التي سوف تقربني مِن الميمني، وتتيح لي فرصة النظر إليه والتقائه والحديث إليه.

وها هي ذي اللحظة قد حانت أو كادت تحين، ولحظات الانتظار قد انقضت أو كادت تنقضي، فقد أبلغنا أن الأستاذ عبدالعزيز الميمني وصل إلى لاهور، وقد تحركت به السيّارة من مطارها ، وأنه في طريقه إلى الكلية الشرقية، ونحن وقوف على بابها الغربي ننتظر الضيف الكريم، فإذا به ينزل من السيارة! رجلٌ عجوز، طويل القامة، قصير اللّحية، أبيضها، قد تجاوز الثمانين أو كاد، وقد ارتدى الزى الوطني الباكستاني من القميص والسّروال، وعلى رأسه قلنسوة جناح (وهي قلنسوة رسمية لكلّ مواطن في باكستان، قد عرفت باسم محمدعلي جناح القائد المؤسس لباكستان وحاكمها العام الأول!) وفي يده عكّازة العجائز! وإذا عميد الكليةوتلميذ الميمني البارز يستبق نحوه ليستقبله فيرحب به، فيعانقه، فيصافحه، ثم يبدأ المشوار التقليدي من الترحيب والمعانقة والمصافحة معاً أو المصافحة فقط، وكان حظي المصافحة فقط، دون أن يعرّفني به أحد أو أعرفه أنا نفسي به! وأوّل كلمة سمعتها من الميمني وهو يردّ على سائل سأله، وقد رأى في يده

العصا أو العكازة قائلاً: قد اتخذت العصا ياأستاذ؟ ((فقال الميمني:نعم! العصا لمن عصى!))، ويعني بذلك أنه لم يتخذ العصا لأنه عجوز ويحتاج إليها، وإنما هي علاج العصاة والمتمرّدين! ثم دخل الجمع المحتشد على الباب، إلى الكلية ثم إلىقاعة الأساتذة حيث جرى الحديث التقليدي من أسئلة عادية وأجوبة عنها، تداولها الضيف والمستضيفون بينهم من الحديث عن وعثاء السّفر، وما واجهه المسافر من مشقة وعناء وتعب، ومن قلق الانتظار وشدّته التي مرّبها المستضيفون المستقبلون إلىحديث عن طقس كراتشي ومناخ لاهور، ثم كان دور الشاي والقهوة، ثم تفرق الجمع، وخلّوا الضيف يتحول إلى سكنه ليستريح!

وأتيح لي في اليوم التّالي أن أستمع، ولأوّل مرة، إلى الأستاذ الميمني، وهو يتحدّث في معرض المخطوطات العربية النّادرة والمطبوعات القيّمة التي تحتفظ بها مكتبة جامعة بنجاب المركزية إضافة إلى ما تقدّم به بعض المواطنين أصحاب المكتبات من المخطوطات والمطبوعات العربية النّادرة عندهم، ليشاركوا بها في هذا المعرض الذي أقيم بمناسبة المؤتمر، وألقى الأستاذ المشرف على المعرض كلمته، وحاول فيها جاهداً أن يعرّف بالكتاب العربيّ، مخطوطه ومطبوعه، تاريخه وتطوّره، وورقه ومداده، ولكنه لم يوفّق فيما أراد، ولم يعجب النّاس كلامه، ولم يرض حاجتهم، ولم يشف غليلهم، مما أثار حفيظة الأستاذ الميمني، وهو الخبير الثقة وفارس الحلبة، وصاحب الاطلاع الواسع على المخطوطات العربيّة ومظانّها في أنحاء العالم، وهو الذي عرف منها مالم يعرفه أحدٌ غيره في عصره، فإذا به ينهض من مكانه آليّا وتلقائيّا دون أن يدعى إلى منصة المعرض، وكان من حقّه أن

يدعى إليها، فصعدها، فوقف أمام الجمع، فرفع عقيرتـه في شـيئ مـن المـرارة والشّكوى، وسمعته يقول ويصول بادئا حديثـه بقـول الله عـزّ و جـلّ: (ولا ينبئك مثل خبير)(٦) ثم جاء بالعجائب من المعلومات القيّمـة المرضيـة، عـن الخطّ والخطاطين والمخطوطات، وعـن التـأليف والمؤلفـين والمؤلفـات، وعـن الـورق والوارقـين والمكتبـات مما لم يخطـر ببـال أحـد منّـا، وأعجـب القـوم بالخطيب، وبما جاء به من المعلومات القيّمة النّادرة، واسـتمعوا إليـه صـامتين ساكتين كأنّ على رؤوسهم الطيرّ! فهذه كانت هي القطرة الأولى مـن بحر الميمني العلمي، أفاض بها علينا فأفادنا، ومتّعنا، وأرضانا جميعاً!

وقـد اسـتمرّ المؤتمـر ثلاثـة أيـام متتاليـة، وكـان نصيـب الأسـد مـن إجراءاته للأستاذ الميمني، فقد ترأس عدداً من جلساته، كما ألقى العديد مـن الكلمات بهـذه المناسـبات كلّهـا باللغـة الأرديـة، وكنـت حريصـاً علـى أن أستمع إليه وهو يتحدّث بالعربيّة أو يلقـي بهـا كلمـة مـن كلماتـه العديـدة المتكررة، ولكنني لم أسمع منه شيئا بالعربية غير الآيـة القرآنيـة الـتي تلاهـا في المعرض أو الجملة التي نطق بها في الوهلة الأولى وهو ينزل من مركبـه عنـد وصوله إلى حرم الكليّة الشرقية!

وعندما حانت نهاية المؤتمر، وكاد الجمع يتفرق، ليعودوا إلى أهليهم وديارهم، سمعنا خبراً غريباً لم يخطر ببال أحد قطّ ، أو قل: إنه لم يخطـر ببـالي أنا قطّ! سمعنا الخبر الغريب، فأدهشنا وسرّنا في الوقت نفسه، ذلكم الخبر أنّ الأستاذ عبدالعزيز الميمني سيسافر إلى كراتشي لكي يعود إلى لاهور بعد أيام قليلة، وسيقضي بها مدّة من عمره، ماشـاءالله لـه أن يقضيهـا، أسـتاذاً للغـة العربية، ورئيساً لقسمها بالكلية الشرقية، كما قضىبها عدداً مـن السـنوات

قبل أن يبلغ الأربعين من عمره محاضراً للغة العربية بالكليّة الشرقية نفسها، حيث ألّف كتابه الخالد عن أبي العلاء المعري، بعد أن اطّلع على كتب الدكتور طه حسين الأربعة عن المعري، وعلى ما كتبه عنه أستاذه ومرشده المستشرق البريطاني اليهودي (مرجليوث). نعم! قد بلغنا هذا الخبر ، وسمعنا به، وشكرنا رئيس جامعة بنجاب آنذاك الأستاذ حميد أحمد خان (م١٩٧٤) على ما اتّخذه من قرار تاريخي، فعرض على الميمني وظيفة الأستاذية ومنصب الرّياسة للقسم العربي، وكان الأستاذ حميد كثير الإعجاب بالأستاذ الميمني، فأحبّ أن يبقى مدّة بالجامعة لكي يشرّفها، ويفيد طلاب العربية بها!

كان هذا الخبر الغريب بشرى سارّة بالنسبة إلى أمثالي من طلاب العربيّة والقائمين بخدمتها في لاهور، كما كان صاعقة نازلة فاجأت بعض النّاس الذين كانوا يتطلعون إلى وظيفة الأستاذية ومنصب الرياسة للقسم العربي، فلم يكن من الممكن أن يعجبهم وجود أستاذ فاضل من علماء العربية المعروفين دوليّا من أمثال الأستاذ عبدالعزيز الميمني، وقد هزّت هذه الصّاعقة النّازلة أوساط الكليّة الشّرقية، وأوساط قسمها العربي خاصة، كما أثارت ضجة في أوساط لاهور العلمية والأدبية، وأقامت الكثيرين وأقعدتهم! فأمّا الرجل الذي كان يتطلّع إلى وظيفة الأستاذية والرّياسة، وكان يعدّها حقّه الموروث دون منازع، فقد أصيب بشيء من المرارة والغضب يشبه الجنون، بل كاد يموت غيظا وكمداً! فذهب إلى منزله، ولم يخرج منه، ولم يحضر إلى الكليّة أيّاماً، يعلم الله عدّتها، وعندما حضر أخذ يهذي، ويسبّ المسؤولين الذين سدّوا عليه طريق التّرقية في زعمه، وقد

استمرت حاله هذه طوال المدة التي قضاها الميمني بالقسم أستاذاً للغة العربية ورئيساً لقسمها بالكلّية!

ومن الغريب المؤسف جدّا أن تلميذ الميمني الخاص الدكتور سيد غضب هو الآخر لما حدث، ولكن لا لأنه لم يكن يحبّ أستاذه، ولم يعجبه تعيينه في القسم ، وإنما غضب الدكتور سيّد واستاء استياءً شديداً، لأنّ رئيس الجامعة، على الرغم من الصداقة بينهما، لم يستشره في الأمر، ولم يخبره به قبل أن يتّخذ القرار بذلك، فإذا هو يعلن استقالته من عمادة الكليّة ومن العمل بالجامعة ، ويغادرها لكي لا يعود إليها أبداً! وأغرب من ذلك أنّ السيّد رئيس الجامعة قد قبل استقالته شاكرا له، وانتهى الأمر!!

وعاد الأستاذ الميمني من كراتشي بعد يوم أو يومين يرافقه أهله، ومعه ما يحتاج إليه من الكتب وما يلزمه من الأثاث، فانضمّ إلى الجامعة أستاذاً ورئيساً للقسم العربي، وبدأنا نبحث له عن السّكن المستأجر المناسب قريباً من الجامعة وعلى نفقتها، وهكذا دارت الأيام دورتها وأعاد التاريخ نفسه، فقد احتلّ الأستاذ الميمني منصب الأستاذ والرئيس لقسم كان قد استقال من وظيفة المحاضر به قبل أربعين عاماً، لأنّه لم يجد فيه جوّا ملائماً، ولم يرله مستقبلاً مأموناً، لأن رئيس القسم في وقته كان يكرهه ويعاديه دون مسوّغ، إذ لا ذنب للميمني غير أن الله سبحانه وتعالى قد وهبه ذكاءً فائقاً وذاكرة نادرة، وامتاز على زملائه جميعاً بالكفاءة والبراعة والقدرة على الحديث بالعربية والكتابة بها! وقد لاقى الميمني – في لاهور مرتين – ما يلاقيه الأذكياء الأكفاء من الهوان والنكران على أيدي أبناء الزمان!

وقد سرّني هذا الوضع، وأحزنني ما حدث في الوقت نفسه، قد سررت لأن رجلاً فاضلاً، بل علماً من أعلام العربية وإماماً من أئمتها في شبه القارة، قد أصبح رئيساً للقسم الذي كنت به محاضراً، وأتيحت لي الفرصة لأن أكون زميلاً للأستاذ عبدالعزيز الميمني، وقد تتاح لي فرصة الإفادة منه، ومن يدري لعلّي قد أكون تلميذاً من تلاميذه! وقد أحزنني هذا الوضع المؤلم أيضاً، لأنني رأيت أن الخلافات بين رئيس الجامعة وبين الدكتور سيّد قد اشتدت، من ناحية، ومن ناحية أخرى هذه العلاقات المتوترة بين الميمني وتلميذه الدكتور سيّد نغصت سرورنا، وأفسدت علينا الجوّ، وفوق ذلك كله، كنت أراني في مأزقٍ خطير ومحنة متأزمة، وذلك لأن صلتي بهؤلاء الرجال الثلاثة قد كانت قوية جدّاً، وكنت أحبّهم جميعاً حبّ المدين الممنون، ومن المعجبين بهم جميعاً! فقد كان السيد رئيس الجامعة الأستاذ (حميد أحمد خان)، رحمه الله، يحبني ويكرمني كثيراً ، وكان معجباً بعربيتي وقدرتي على الحديث والكتابة بها، وكنت أقوم بدور المترجم بينه وبين من يزوره أو يزور الجامعة من الشخصيات العربية بين حين وآخر، كما كان يثق بي، فيطلب إليّ أن أترجم له الرسائل الرسمية أو الخاصّة التي كانت تأتيه من البلاد العربية، وكان يكلفني بإعداد الأجوبة عنها بالعربيّة، وكذلك الدكتور سيّد، رحمه الله، فقد كان، على الرغم من حداثة سنّي وقلّة بضاعتي ونقص علمي، يحبني كثيراً، ويثق بي ثقةً تامّة، فيكلفني بأعمال جسام من مساعدته في الشّؤون الإدارية، أو إعداد البحوث والمقالات لمجلة الكليّة، وأمّا الأستاذ الميمني ، رحمه الله، فلا حاجة بي إلى المزيد من الكلام على صلتي به! ولم يعجبني وضع التوتر القائم بينهم، فقررت في نفسي وفي قرارة ضميري أن أستغلّ حداثة سنّي، وأحاول جاهداً تحسين العلاقات بين

الرّجال الثّلاثة، لكي تعود المياه إلى مجاريها، وقد فعلت، ووفقت في مسعاي بعض التوفيق بإذن الله!

ففي هذه الظّروف الحرجة والجوّ المتوتّر تسلّم الأستاذ الميمني الطّاعن في السنّ رياسة القسم العربي، ولاحظت أن بعض أساتذة القسم لم يعجبهم قدومه، وفضّلوا الابتعاد عنه، وتخلّفوا عن مجالسه التي كانت تتفجّر نواحيها بالمعلومات القيّمة المفيدة، والمعارف الواسعة الجمّة عن اللغة العربية وآدابها عبر العصور، وعن كتبها المخطوطة والمطبوعة في مكتبات العالم، ولم يكن غرضه سوى الإفادة، ولم يكن ليهمه شئ غير النهوض بلغة الضّاد والترغيب فيها والدعوة إلى الاهتمام بها وكنت قد أشرت على الأستاذ الميمني أن يحاول تحسين الأوضاع في القسم ، وينشر ألوية التحابى في أجوائه، وأن يقرّب منه المبتعدين عنه، وأمّا أنا شخصياً، فبطبيعة الحال لم أتردد في التّعاون الشّامل معه، وقررت الانضمام إلى صفّه، ولم أتخلف عن مجالسه الأدبية، ولازمته في غدواته و روحاته، والتزمت خدمته ومؤازرته بكلّ ما كان في وسعي ومقدرتي.

وكنت قد عرفت الميمني قبل ذلك (٧) أنه صعب المنال جدّا، ولا يحب التّدخل والخلل في حياته العلمية، ولا يرحب في حلقاته بكلّ من هبّ ودبّ، ولا ينظر إلى كلّ طالب، يلتحق بالقسم الدراسي رسميّاً، أنه تلميذ له بل يراقب الطلاب، ويغربلهم، فيصطفي منهم من يستحقّ اهتمامه وعنايته، ولم أكن أراني أهلاً لذلك، إلّا أنّ حسنَ الحظ ساعدني فيه، فاكتسبت ثقته، وآمنت بما قاله سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا أراد الله شيئا هيّأ أسبابه) (٨)، وقلّما تخلّفت عن مجالس الميمني العلميّة التي كان يتحدّث فيها عن الموضوعات الأدبية، وكان يأتي فيها بالعجائب والنوادر من

المعلومات والمعارف ، ويكثر من إنشاد الشعر العربي عن ظهر قلب، ويسرد الأمثال والأقوال، ويحكي الاحوال والأخبار لأدباء العربية وأئمتها ومؤلفاتهم ومظانّها في مكتبات العالم، إضافة إلى ما كنت أفيده منه في أثناء مرافقتي له، وهو يخرج من مكتبه متجهاً نحو موقف الحافلة العامة، ليركبها ويعود إلى سكنه. وكان الميمني، خلال هذه اللحظات العابرة الغالية، لا ينفك يحكي لنا، ويفيض علينا مما كان يحفظه من كنوز العلم الغزير ونفائس الأدب الجمّ الكثير.

وللأستاذ الميمني نكت وطرائف، أنتجتها أسفاره اليومية بالحافلة العامّة، وكنا نطلق عليها عنوان ((الطرائف الميمنية الحافليّة))، إذا صحّ التعبير، فمنها أنّ الأستاذ، رحمه الله، كان مقتصداً، فلم يكن يحب الإسراف، فيفضل السّفر بالحافلات العامّة كلما خرج من المنزل أو المكتب، وأمّا سيارات الأجرة، فكان يرى السّفر بها من التبذير والإسراف، وكان يعدّ ذلك من تدلّل المترفين ولعبتهم، وكانت حافلات لاهور العامّة آنذاك ذات الطّابقين، فكان الميمني يفضل دائماً أن يصعد إلى الطابق الأعلى، ولم يكن يجلس في الطابق الأوّل إلا نادراً!

وخرج يوماً مع حرمه المصون (وكانت سيدة كريمة رحيمة رؤوفة في غاية الكرم والرحمة والرأفة، ولم تكن تخرج إلا نادراً إذ كانت في السبعين أو ما يزيد من عمرها، وكانت تشفق عليّ كثيراً، وترحب بي دائماً كأحد أبنائها كلما زرت الأسرة في بيتها)، فأرادا يوماً أن يركبا الحافلة ذات الطابقين، فألحّ عليها الأستاذ أن ترافقه فيصعدا إلى الطابق الأعلى، ولكنها رفضت، وأصرّت على أن تجلس في الطابق الأسفل! فقال لها مغاضباً وهو

يجلس بجانبها: ((أنت لا تحبين الهواء الطلق والمشاهد المتنوعة الرائعة على جانبي الطريق أيتها المرأة! فيا للخسارة!)).

وخرج من مكتبه يوماً فركب الحافلة، وجلس في طابقها الأعلى، وكان متعباً جداً، وعندما وصلت به الحافلة إلى أقرب موقف من منزله، أراد أن ينزل منها، وكان أحد النشالين يرقبه وينتظر الفرصة، فأدخل النشال يده في جيب الميمني ليسرقه، ولكنه لم يمهله أن يأخذ شيئاً منه، وإنما قبض على ساعده وأخذه أخذ عزيز مقتدر، ولم يخل سبيله حتى أوصله إلى مركز الشرطة، على الرغم من أنّ النشال كان شابّاً يافعاً، وكان يبكي ويصرخ ويرجو ويلح في البكاء والصراخ والرجاء!

ومن نكته ((غير الحافليّة)) أنني زرته يوماً في منزله، فوجدته يدخّن النارجيلة، وعلى وجهه شيئ من الكآبة والغضب، فسلمت عليه كالمعتاد، فردّ عليّ ردّا عاديّاً ثم قال: ((انظر إلى أمّك هذه! قد تضايقت بها كثيراً، فهي لا تزال تبكي وتنتحب منذ مساء الأمس، وعبثاً حاولت أن أهدئ من روعها وأن أقنعها، ولكنها لا تحفل بما أقول!)).

فقلت له: لعلك قد زجرتها أو أسأت إليها يا سيدي! فقال: لم أفعل شيئا من ذلك! فقلت وأنا ألتفت إلى أمنا الرؤوم: مالك يا أم! ماذا حدث بك؟! فقالت وهي تبكي وتنتحب: ((قد جاءنا الخبر من أمريكا يا بني! يقول: إن ابننا عمر، وهو أصغر أبنائي، قد تزوج من فتاة يابانية، وكنا نتمنى أن نزوجه من فتاة من فتياتنا في باكستان، وأن يكون زواجه يوماً مشهوداً، وأن تغمرنا الأفراح من كلّ جانب! إلا أنّ هذه الأماني والآمال كلّها قد بطلت وتحولت إلى حسرات لاذعة.. و.و..)).

فقطع عليها الأستاذ قـائلاً: ((انظـر إلى هـذه المـرأة الخرقـاء! أهـذه مناسبة الحزن ولحظة البكاء أم فرصة الفرح والشكر!؟ الشّابّ قد تزوج من فتاة، أحبها وأحبّته، دون أن يكلّفنا فلساً واحداً وكفى!!)).

وشهدت يوماً مجلسه العلميّ الذي كان يضـمّ عـدداً مـن الأسـاتذة الأفاضل، وكان يحكـي لهـم مـا تعـوّد أن يحكـي مـن النّـوادر، أو ينشـد مـن الأبيات الشعرية لمن حضـر عنـده، فحكـى لهـم قصـة مـن القصـص الأدبيـة الطريفة تتخللها أبيات شعرية، وكنت قد سمعت منه هذه القصة مـع أبياتهـا النادرة، وبالمصادفة ومن حسن الحظ أننـي كنـت قـد حفظـت بعضـاً منهـا، وهي التي غابت عن ذاكرة الأستاذ، فاستغلق عليـه الكـلام، ففتحـت عليـه هامساً في أذنه دون أن ينتبه إليه أو يشعر بـه أحـد غـيري، وسـألني بعـد أن تفرق الجمع، وخلا لنا الجوّ قائلاً: كيف عرفت هذه القصـة ومتـى حفظـت أبياتها؟ فقلت له: يا سيدي! ما عرفت شيئا، وإنمـا سمعتهـا مـن حضرتـك في اليوم الفلاني وفي مكان كذا وكذا، فتذكر فصدقـني وأعجبـه مـا رآه مـني، وكان ذلك الانطباع الطيّب الأول الذي أخـذه الأسـتاذ عنّـي، ومنـذ تلـك اللحظة بدأ يظنّ بي خيراً ؛ وكانت نهاية كلامه: ((ذاكرتك قوية!)) وقلـت في نفسي: ليست الذاكرة يا سـيّدي! وإنمـا هـو فضـل الله وحظـي السّـعيد الذي ساعدني، والله على ما يشاء قدير!!

ثم مضت أشهر عديدة، وأنـا والميمـني علـى ذلـك النّهـج الروتيـني والمنوال المعمول به، نغدو ونروح، نجتمع فنتفرق.. نخرج ونتماشى، ونتبادل الحديث العادي حول القسم وإدارته حتى جاءت لحظة حاسمـة مـن صلاتنـا وعلاقاتنا تغير بها الوضع، وذلك أنّ حاكم غرب باكستان، الذي كان يتبوأ مقام رئيس كلّ جامعة في الإقليم بحكم منصبه ولا يزال، أبلـغ نـائب رئيـس

الجامعة (وهو الأستاذ حميد الذي مرّبنا ذكره) أنّ شخصية عربية بارزة سوف تخطب جمعاً شعبياً عاماً في لاهور، وسوف تلقي كلمتها باللغة العربية، وأنه على الجامعة أن تكلّف أستاذاً من أساتذة القسم العربي، ليقوم بترجمة فورية للكلمة، وحبذالوقام بذلك الدور الأستاذ عبدالعزيز الميمني، رئيس القسم ، وذلك مما أقلق الأستاذ، لأنه، على الرّغم من غزارة علمه وإتقانه للغة الضّاد، لم يكن يرضى بأن يقوم بمثل هذه الأعمال التافهة! فإذا هو يسألني إذا كنت قادراً على ذلك، فأجبته بقولي: يا سيّدي! سبق أن قمت بمثل هذه التوافه في شتّى المناسبات، فإذا أحببت حضُرتك أن تأمرني بذلك، فلا مانع لديّ، فسرّ الأستاذ جدّا، وأبلغ السلطات أنّ المحاضر الفلاني من القسم سوف يقوم بهذه المهمة.

وأمّا الشّخصية العربية، فقد كانت هى شخصية الشيخ أحمد إسماعيل كفتارو، مفتي سورية الأكبر، الذي كان قد أدلى بتصريح صحفي، أيّد فيه موقف باكستان في حرب ١٩٦٥م التي قامت بين باكستان والهند، وأفتى بأنها جهاد إسلامي حقّا، وأنّ على المسلمين أن يشاركوا فيه ويساعدوا باكستان في موقفها الحقّ العادل، ممّا جعل حكومة باكستان تمنحه وسام (هلال باكستان، وهو أكبر وسام مدني) تقديراً لموقفه الأخوي النبيل، وعندما جاء سعادة المفتي ليتسلم الوسام، قرّر أهل لاهور عقد جلسة شعبية بهذه المناسبة ليخاطبها حضرة المفتي، فألقى هو كلمته، وقمت أنا بالترجمة الفورية التي كانت ناجحة للغاية، وذلك مما سرّ الميمني وأعجبه جدّا، وكان جالساً أمامي كما اتفقنا عليه ليفتح عليّ إذا ما نسيت أو استعصى عليّ شيئ من الكلام! وعندما انتهت الجلسة، بادرني الأستاذ باسماً متهلّلاً، فعانقني وضمني إلى صدره، فشعرت كأنني انغمست في بحر من

العلم والحنان معاً ! ثم قال، ولا تزال كلماته ترنّ في أذني وتذوب حلاوة في مسامعي: ((قد عرفتك اليوم! قوّاك الله ، وأشكرك على هذا الإنقاذ والإنجاز! وقد كنت أذناً مصغية إليك وإلى حضرة الخطيب الذي، كلما انتهى من دوره وجاءت نوبتك للترجمة، خشيت عليك، ودعوت لك من أعماق قلبي، ليوفقك الله ويعينك، وكنت أتنفس الصعداء كلما انتهيت من الترجمة! إنني أفتخر بك، ويعتز بك القسم، فقد زدت من شرفه، ورفعت من مكانته! أبقاك الله، وجعلك ذخراً للشعب والوطن!)).

فمنذ هذه اللحظة الحاسمة وبهذه المصادفة الطيّبة، نلت اهتمام الميمني وأحرزت ثقته، وهي التي أثرت في نفسه كثيراً إضافة إلى أني كنت أمدّ له يد العون في الأعمال الإدارية أو ما يحتاج إليه في غدواته وروحاته، وبذلك رفع ما كان قد تبقى بيني وبينه من الحجاب والكلفة، وحلّت محلّها الألفة، فجعل يحنو عليّ ويشفق، وكان، كلما زرته في مكتبه أو منزله، يهش لي، ويتهلّل وجهه، ويرحب بي بكلمات حارة رنّانة، وإذا به يوماً يقول لي: ((لم لا تختار موضوعا للدكتوراه، وتسجّل تحت إشرافي!؟)) فقلت له، وقد تدفّق قلبي فرحاً وسروراً، وشعرت كأنّني أرى أحلامي وقد تحقّقت: ((يا سيدي! هذا هو كلّ ما أتمّناه في حياتي ، وهي بغيتي منذ أمد بعيد، وسأكون أسعد النّاس إذا أتيح لي ذلك!)).

فأعطاني الأستاذ صورة من مخطوط نادر، كان قد عثر عليه خلال تطوافه في مكتبات تركيا الخاصة، وهو كتاب ((حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء)) لمحمد عبد لكاني الخراساني، ولعله آخر الحماسات الشّعرية العربية اكتشافاً، وكان الميمني يعدّها الحماسة الثانية عشرة بعد

الوحشيات أو الحماسة الصغرى لأبي تمّام الطائي، وهي من بين الكتب الثلاثة الأخيرة التي عثر عليها الميمني، وحققها وقد نشرت وهو حيّ يرزق.

•

فشكرت الأستاذ شكراً جزيلاً على هذا التكرّم، ودخلت مكتبة الجامعة المركزية، فبدأت أقرأ النسخة المصورة لحماسة الظرفاء، فإذا هي تبدأ بقطعة شعرية للشاعر عمرو بن الحارث بن الشريد والد الخنساء، تتكوّن من ستة أو سبعة أبيات، ولم أتمكّن من القراءة السّليمة الصّحيحة لها، إذ كانت مخرومة مطموسة، وتذكرت أن الأستاذ الميمني قد حان خروجه من مكتبه متجهاً نحو موقف الحافلة عائداً إلى منزله، وكان لا بدّ لي أن أرافقه إلى الموقف ، فقمت آليّاً وسارعت إلى الأستاذ، فوجدته قد خرج من المكتب متجهاً إلى المنزل فسلمت عليه، فردّ عليّ ، فبادرني بالسؤال عن حماسة الظرفاء، وكيف وجدتها سهلة أم صعبة؟ فأخبرته الخبر وقلت له: ((يبدو لي من الصعب أن أقوم بتحقيق الكتاب الذي لا توجد له نسخة أخرى في العالم غير هذه المخرومة المطموسة، التي لم أتمكّن من قراءة قطعتها الشعرية الأولى!)).

فقال الأستاذ: ((لا تخف ولا تتردّد! هكذا تكون البداية، وكلّما تقدمت في المشوار، وتوغلت في المضمار، مهدّت لك طريقاً وأنست إلى العمل! فهل تذكر شيئاً من كلمات القطعة؟)) فأجبته بقولي: ((نعم فهي للشاعر عمرو بن الشريد، وصدر البيت يبدأ بقوله: ((أرى)) وينتهي عجزه بقوله: ((سليمى مضجعي ومكاني))، ولم أستطع أن أقرأ ما بين هذه الكلمات))، فقال الأستاذ: ((تذكرت الأبيات وعرفت قائلها، فهي لعمرو بن الحارث بن الشريد والد الخنساء، كان قد اقتحم معركة من القتال،

فأصيب بالجروح الشديدة ولكنه لم يمت، وبقي بعد المعركة يعيش حياةً أذلّ وأفظع من الموت، وكانت له أمّ تعرف بأم عمرو وزوجة تسمى سليمى، فسألها بعضهم عن حال زوجها، وكانت قد سئمت من عيادته، وتبرمت من القيام بخدمته، فردّت عليه بقولها: ((لا هو حيّ فيرجى ولا ميّت فيلقى))، فسمع كلامها هذا زوجها الشاعر عمرو بن الشريد فأخذ يقول:

أرى أمّ عمروٍ لا تملّ عيادتي

وملّت سليمى مضجعي ومكاني! (٩)

ثم قال وهو يمشي نحو الموقف : ((والمكان هنا بمعنى الوجود والبقاء، أو الحياة))، ثم أنشد بقية الأبيات! فعدت إلى النسخة المصورة فوجدت أبيات القطعة كما أنشدها الميمني ليس أقلّ ولا أكثر! فعلمت علم اليقين، بل عين اليقين، وتأكدت أنّ الأستاذ الميمني يحفظ الكثير من شعر العرب، وأنه آية من آيات الله في الحفظ والذاكرة!

وحقّا قد راعني ما رأيت وأدهشني ما سمعت، وشجعني ذلك على أن أوجّه سؤالاً شخصياً إلى الأستاذ، فقلت له: ((كم بيتاً تحفظ من الشعر العربي يا سيّدي؟! فقال: ((قد ضعفت ذاكرتي الآن، وذهب عني الكثير مما كنت حفظته ، ولم يبقَ لديّ منه إلا سبعون ألف بيتٍ تقريباً!)).

وكان الميمني قد حفظ الكثير من أدب العرب شعراً ونثراً، حتى إنه كان يحفظ بعضاً من دواوين الشعراء والمجاميع الشعرية بكاملها، كديوان المتنبي و ديوان الحماسة لأبي تمّام والمعلقات والمفضليات وغيرها، وكان يدخل الفصل الدراسي دون أن يحمل معه كتاباً منهجيّاً فيقول للطلاب:

((افتحوا الكتب، وليقرأ أحدكم الكلمة الأولى من القصيدة أو القطعة الشعرية))، فكان أحد الطلاب يقرأ الكلمة الأولى أو المصراع الأول، ثم يأتي دور الأستاذ فينشد لهم القصيدة كلّها أو القطعة كلّها عن ظهر قلب، ثم يأتي بخلفيتها التاريخية، ثم يعلّق عليها نقداً وشرحاً، ثم ينصرف!!

ويوم اعتزم الأستاذ أن يغادر لاهور، ويعود إلى مقره في كراتشي – حيث انتقل إلى رحمة الله – أقام الطلاب والأساتذة حفلة التوديع له، فقال فيها أحد زملائنا الكبار الأفاضل (وهو الدكتور ضياء الحق بن الشيخ أصغر علي الروحي، وقد كان الشيخ الروحي هذا المتوفى عام ١٩٥٤م من أصدقاء الميمني المخلصين، وله ديوان شعرٍ عربيّ قد قام بتحقيقه وشرحه والتقديم له كاتب هذه الأسطر، ونشر في عام ١٩٩٢م): ((كنا نسمع ونقرأ في المراجع عن أئمة الحديث وحفّاظه، كالبخاري والحاكم، وعن ذاكرتهم وحفظهم لمئات الألوف من الحديث النبوي، بمتونه وأسانيده، فنستغرب ذلك، وقد لا يصدقه بعضنا، إلا أننا قد رأينا الشيخ عبد العزيز الميمني، ورأينا ما يحفظه من الآداب العربية الواسعة، فصدقناه، وأيضاً نصدق هؤلاء الأئمة الحفّاظ، ووجود الميمني شهادة عدلٍ على ذاكرتهم وحفظهم!))، علماً بأن الحياة في عصرهم لم تكن مزدحمة قلقة مضطربة كحياتنا المعاصرة المزدحمة المضطربة، التي تأتي على قوى الإنسان، وعلى رأسها قوة الذاكرة! ويجدر بنا أن نأخذ بعين الاهتمام وألا يغيب عنّا أنّ هؤلاء الأئمة الأعلام قد كانوا متفرغين منقطعين لخدمة الحديث النبوي الشريف، ولم يكن همهم غير حفظه وروايته، في جوّ هادئٍ نقي بعيد عن القلق والزحام والجوّ الهائج المضطرب!

وعن ذاكرة الميمني القوية قصةٌ أخرى قد سمعتها وأنا في مصر، ذلك أنّ فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور عبدالحليم محمود، رحمه الله، الذي زار باكستان مرات، وكنت له مترجماً في كلّ زورة، وفي المرة الأخيرة في ١٩٧٧م، دعاني رسمياً لزيارة مصر والأزهر الشريف، وأقمت في مصر مدة شهرين ضيفاً خاصّاً لفضيلته، وكتب لي وثيقة تؤهلني للدّخول إلى أيّ مكتبة، والزيارة لأيّ مؤسسة، فأخذوا لي موعداً مع رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة فالتقيته وزملاءه الأفاضل، وجرى الحديث عن شتّى جوانب اللغة العربية وآدابها. وفي النهاية سألني رئيس المجمع، وكان إذ ذاك الدكتور إبراهيم مدكور، رحمه الله، قائلاً: كم يوما ستبقى في مصر؟ فقلت له: شهرين تقريباً ! فقال: ((إذاً ينبغي أن تتكرر زيارتك للمجمع))، فوافقت فذهبت إليهم بعد أسبوعين أو ثلاثة، فلم أجد أحداً من القوم، وقيل لي: إنّهم ذهبوا إلى مقرّ رئيس الجمهورية حيث دعاهم الرئيس أنور السّادات، وتخلّف عنهم أحدهم، وهو الدكتور شوقي أمين، رحمه الله، فدخلت عليه، فرحبّ بي، فجلسنا نتجاذب ألوان الحديث، فسألني قائلاً: ((إنّ عربيتك لقوية جدّا، فأين تعلمتها؟))، فقلت له: ((من سوء حظّي أنني قد حرمت من الدراسة بجامعة عربية أو أن أقرأ على أستاذ عربيّ، بل إنني لم أتعلّم العربية في أي جامعة على أيّ أستاذ، وإنّما تعلمتها بمفردي في بيتي (إذ أنني أكملت دراستي كلّها بالانتساب، ولم أكن طالبا منتظماً في يومٍ من الأيام!) وقد أتقنت عربيتي بالاستماع إلى الإذاعات العربية، ثم إنني كنت أنتهز كلّ فرصة للقاء مع أيّ عربيّ يزور باكستان، فكنت ألتقط المفردات، وأتعلّم نطقها السّليم، إمّا من أفواه هؤلاء العرب الزوّار أو من المذيعين العرب، ولكنني حضّرت رسالة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ عبدالعزيز

الميمني، رحمه الله))، وبمجرد سماع هذا الاسم مني، وثب الدكتور شوقي أمين آليًا يقول في صوت مرتفع، يشوبه شيء من دلال المصريين ودعابتهم مع جيم مصرية: ((لماذا لم تخبرني أنك تلميذ ذلك الجنّي؟)) فقلت له: ((يا سيدي! لماذا سمّيت أستاذي العظيم جنياً؟!)) فقال: ((والله لقد كان جنيّاً بالفعل! كان جنّيّ العلم والأدب! كان قويّ الذاكرة واسع الاطّلاع! جاء بنسخة محققة من سمط اللآلي، ونزل عند صديقه الأستاذ أحمد تيمور باشا، والد القصاص الروائي المصري محمود تيمور، في درب السّعادة بالقاهرة، وأدهشنا بمعلوماته القيّمة الواسعة عن المكتبات وبما فيها من الآداب العربية، مخطوطها ومطبوعها، وجاء بالمراجع العربية الغريبة التي لم تخطر ببال أحد منّا، وكان يتحدّث العربية بلهجة ثعلب والمبرد! إنه لم يكن يبدو إنساناً عاديّاً، فسمّيناه جنيّاً! إنه كان من أرض عبقر! وكان جنيّي العلم والأدب حقّا!!)).

وأمّا العربية التي كان الميمني يتحدث أو يكتب بها فهي تشبه في أساليبها بعربية المبرد وثعلب، دون شك . وكانت تزخر حقا بالمفردات الغريبة الوحشية الثقيلة كما يتضح من كتابات الأستاذ التي بين أيدينا، وقد انتبه إلى ذلك غير واحد من الكتاب العرب الأفاضل، ولفتوا الأنظار إليه غير مرة، فمن ذلك أنني شاركت في ندوة عن ((صناعة المعجم العربي)) برباط المغرب في ١٩٨٠م تحت إشراف جامعة الدول العربية، وألقيت كلمة مرتجلة بالعربية في إحدى الجلسات، وعندما انتهت الجلسة، سألني الدكتور عبدالله عباس الندوي السؤال نفسه الذي وُجه إلي وأنا في مصر، فأجبته مفتخراً: ((أنا تلميذ الأستاذ عبدالعزيز الميمني))، فقال الدكتور الندوي: ((قد رأيت أستاذك، وتحدثت معه، واستمعت إليه، وهو يتحدّث

بأسلوب المبرد وأضرابه من الأعلام القدماء، قد نهج مناهجهم، واصطبغ بصبغتهم، وأمّا أسلوبك أنت فلم نجد فيه شيئاً يشبه أسلوب الميمني!! فقلت له: يا سيّدي! أنا أقلّد أستاذي في تحقيقي للمخطوطات العربية وإحياء التراث العربي، وذلك مما تعلمته منه، وقلدته ولا أزال أقلده فيه!!

فهذه ذكريات عاطرة عن الميمني، وهي كثيرة طويلة تحتاج إلى وقت وإلى مكان، ولكننا نكتفي هنا بهذا القدر القليل والنزر اليسير، ونعود إلى ما كنّا فيه من موضوع الدّكتوراه وحماسة الظرفاء، فقد قررت في نفسي واعتزمت على أن أمضي في عملي، ولم يعجبني أن أتركه أو أتنازل عنه لكيلا يسيء الأستاذ بي الظنّ، فحاولت جاهداً أن أوطّن نفسي على ذلك العمل الصعب، وبذلت فيه جهداً كبيراً ووقتاً غير قليل حتى تمكنت من تذليل الصّعاب واستأنست إلى الحماسة وإلى ظرفائها من الشعراء العرب القدماء والمحدثين، فإذا بالأستاذ يفاجئني يوماً، ويبلغني أنّ طالبةً من تلميذاته في جامعة كراتشى قد سبقتني إلى اختيار الكتاب وتحقيقه، وأنها قد قطعت شوطا غير قصير من مشوارها بعد أن سجلت الموضوع للدكتوراه تحت إشراف زميلنا الفاضل الأستاذ الدكتور (سيد محمد يوسف)، رحمه الله، من أخص تلاميذ الميمني، وأقربهم منه، وأحبهم إليه، وهو الذي خلفه رئيساً للقسم العربي بجامعة كراتشي! فلا تسأل عن حزني وأسفي على ذلك، واعتذر الأستاذ قائلاً: إنّه كان قد أعطاها نسخة للكتاب قبل أن يغادر كراتشي، وقد تمّ كلّ ذلك في غيابه ودون علمه، ثم أشار عليّ أن أتحوّل إلى موضوع آخر، وأختار كتاباً آخر من بين النّوادر التي كان قد عثر عليها الأستاذ الميمني، وجلب نسخها المصورة من تركيا، فاتفقنا أخيرا على

موضوع جديد، وهو كتاب ((الهفوات النّادرة)) لابن غرس النعمة ، ولم يمض شهر أو أقل من ذلك حتى جاءنا نبأ من دمشق مفاده أنّ رجلاً فاضلاً من رجال مجمع اللغة العربية بدمشق ومن بين أصدقاء الميمني، قد أنهى أو كاد ينهي تحقيق الكتاب! وأنه على وشك الطباعة! فلم يسعنا إلا أن نتنازل عن الكتاب، ونمضي في تذليل العقبات التي تحول بيننا وبين ما نريد، وتقف في سبيلنا إلى أن ننتصر في نهاية المطاف، فلنعم ما قيل:

لأستسهلنّ الصّعب أو أبلغ المنى

فما انقادت الأمال إلّا لصابر! (١٠)

أو كما يقول الحماسي:

وقد يعقل القلّ الفتى دون همّه

وقد كان، لولا القلّ، طلّاع أنجد!(١١)

وأخيراً، وليس آخراً، دعاني الأستاذ إلى مكتبه يوماً يتعاطف معي على ما حدث وما حال دوني من العقبات المتنوعة المتكررة، وقال لي مشجعاً: ((لدي نسخة مصورة لكتاب آخر نادر جدًا، قد عثرت عليه في مكتبة خاصّة في تركيا، وكنت أودّ أن أقوم أنا بتحقيقة وإحيائه إلّا أن ضعفي وشيخوختي وما أعاني من الأسقام والمتاعب قد حال دون ذلك، فأشرت على الدكتور يوسف بأن يقوم بتحقيق الكتاب، وقد بذل جهداً، وأنفق أياماً في قراءة الكتاب وتحقيقه فوجد العمل صعباً عليه، واعتذر قائلاً: إنّه من شبه المستحيل أن يقوم أحد بإحياء هذا الكتاب الغالي الأغرّ من نسخة وحيدة في العالم قد كتبت بخطٍ أندلسيّ، وقد أصابها الماء، وطمست حروفها وكلماتها، إضافة إلى صعوباتٍ أخرى! ولكن الكتاب ثمين ونادر جدّا، وهو من كتب التراث العربي الأندلسي، وإنك لو تمكنت من إحيائه

وتحقيقه لأصبحت من الخالدين! ألا وهو كتاب القرط على الكامل للمبرد لأبي الوليد الوقشي وابن السيد البطليوسي! وقد جمع الكتاب إلى زياداتٍ من عنده ابن سعد الخير الإشبيلي صاحب الفهرسة المشهورة!)).

فقلت للأستاذ شاكراً إيّاه: ((يا سيدي! لا أبغي الخلود ولا شيء، غير أنني أود أن أحضر رسالة الدكتوراه تحت إشرافك فقط! فذلك كلّ ما أريده وأتمنّاه!!)) وهكذا تمّ اختياري للموضوع، وتمّ تسجيله بجامعة بنجاب تحت إشراف الأستاذ الميمني، رحمه الله، وكلّل الله جهودي بمنّه وكرمه، فأصبحت من ((الخالدين))! وقد طبع الكتاب في لاهور، سنة ١٩٨١م، وطبعته الثانية على وشك الظهور من الرياض بإذن الله تعالى.

وكثيراً ما كنت أختلف إلى منزل الميمني إبّان إقامته في لاهور بصفته أستاذاً ورئيساً للقسم العربي، ولم يكن بيني وبينه حجاب أو مانع يمنعني أو كلفة تعترض سبيل الزيارة له، فكنت أزوره في غدواته و روحاته، وفي بعض الأحيان كنت أطرق بابه ليلاً دون إذن سابق أو موعد محدّد، وكان يرتاح لرؤيتي دائماً، ويرحب بي كلما زرته في بيته، ولم أره متردّداً يوماً عما كنت أسأله ممّا يستعصي عليّ من بحثي ورسالتي، وكنت أقضي معه ساعاتٍ طويلة بصفته مشرفاً على رسالتي للدكتوراه ، ولم يبخل عليّ بشيء قطّ! ولم يتردّد في إعارة الكتب أبداً، إلّا أنه لم يكن ينسى كتاباً من كتبه المعارة، فقد كان يعدّها من ((أولاده البررة!)) وأصدقائه المخلصين وأحبائه الصادقين! فإذا أعار كتاباً فلا بدّ أن يعاد إليه في الوقت المحدّد! وكان يذكرني بإعادة الكتب المعارة كلما طال عليها الأمد، وتقادم بها

العهد، وكان يقول: ((عد بالقديم لكي تستحقّ الجديد!))، وقد أهدى إليّ عدداً من الكتب التي كانت تأتيه من قبل دور النشر العربية أو الجهات الأخرى في البلاد العربية، كما أهدى إليّ القليل من مؤلفاته (١٢)، ومنها نسخة من كتابه ((أبو العلاء وما إليه، وكان مّما أهدى إلي نسخة ((الوحشيات)) الأولى أرسلت بها له دار المعارف في مصر بعد أن ظهرت طبعتها الأولى بتحقيقه، فرجوته أن يعيرني إيّاها ليلةً واحدة على أن أعود بها في صباح الغدّ من ذلك اليوم! فردّ عليّ بقوله وكأنه قد تألم وتأثّر بعض الشيء من كلامي: ((خذها لثلاث ليالٍ تستضيفها عندك، فلا يجوز للضيف أن ينزل عند مضيفه، فيطيل الإقامة أكثر من ذلك!! وقد طالعت النسخة، ونبهت على أخطائها وأقمت عوجها، وأديت زكاتها بما كتبت بهوامشها، وسوف تراها، وهذا من دأبي! كلما قرأت كتاباً أديت زكاته، ووفيت حقّه! ويجب أن تتذكر دائماً بأنه لا يحب أيّ مؤلف أو محقّق أن يحرم من النسخة الأولى من عمله تهدى إليه من قبل الناشر، وأنا أيضاً لا أحب ذلك، ولكنك تستطيع أن تأخذها وتطالعها وتعود بها إليّ ، فإذا جاءتنى النسخ الأخرى للكتاب فأنت أحقّ بإحداها، أمّا هذه فهي عارية مؤداة وذمّة في عنقك!!)).

وكثيراً ما دعاني، وأنا عنده في بيته، للغداء أو العشاء إلا أنّني لم أتعش ولم أتغد عنده يوماً وهو في لاهور، وذلك لأنني، بصفتي من سكان المدينة، لم أكن أود ذلك، ولم أر مسوّغًا له، أو قل: إنّني لم أرد أن أثقل على الأستاذ أبداً! وأمّا الشّاي فكنا نكثر من ذلك عنده، تعرض علينا (عليّ وعلى أستاذي)) أكواب، فنفرغها، ويعاد عرضها علينا مع البسكويت مراتٍ ومرّات ، وكثيراً ما كان يقول لي: ((يا حضرة الحافظ! (هكذا كان

يناديني أستاذي، إذ إنني أحفظ القرآن الكريم بحمد الله ومنّه، ومن التقاليد الدينية المتعارف عليها عند المسلمين في بلادنا، أنهم يسمّون من يحفظ القرآن الكريم حافظاً، فينادونه بحضرة الحافظ تكريماً واحتراماً!!) هذه الأشياء، من المأكولات التي تراها، بائتة قد مرّ عليها وقت غير قليل، وقد لا تعجبك! فتعال نذهب معاً إلى محل الخبّاز في السّوق المجاورة القريبة لكي نشتري لنا الحاجات الطازجة، فنعودبها، ثم نشرب الشاي، ونأكل وندخن!)).

وأمّا السّجائر فقد كانت بضاعة مشتركة بيني وبين أستاذي، فكنّا نتقاسمها ونتداولها بيننا، ولم أكن أدخل على الأستاذ إلّا ومعي علبة أو علبتان من السّجائر، فإذا انتهت، أخرج الأستاذ علبته، مما كان لديه، أو لجأنا إلى النارجيلة التي كان يحبها الأستاذ، ويفضلها على السجائر دائماً، وفي بعض الأحيان كنت آتي له بالتبغ اللاهوري من النوع الخاص الذي كان الميمني مولعا به، (ولم أزل أزوده به وهو في كراتشي، وأرسله إليه مع السّمن البلدي من إقليم بنجاب، الذي يكثر فيه الجواميس والبقر، فإذا نفد عنده أو كاد، ذكرني بذلك، وقد سافرت من لاهور إلى كراتشي غير مرة مع التبغ اللاهوري والسمن البلدي لكي أتشرف بلقياه!). وكان الأستاذ الميمني يرى أنّ السيجارة أو النارجيلة ممّا يعين الباحثين المحققين على أعمالهم المتعبة الثقيلة من البحث والتحقيق!!

ولم يبخل عليّ الأستاذ بعلمه أبداً، ولم يضنّ عليّ بشيء قطّ مما كان لديه من المعلومات في مذكراته الغالية أو النّسخ المصورة من المخطوطات التي كان قد جاء بها من الخارج، وأنفق عليها من جيبه أموالاً طائلة.. كما لم يبخل عليّ بما كان عنده من نفائس الكتب التي كان يحبها كثيراً، وقد

رأينا أنه هو الذي أشار عليّ وألحّ في الإشارة بأن أحضّر رسالة الدكتوراه تحت إشرافه دون أن أطلب منه ذلك أو أرجوه! وكان على الرغم من شيخوخته، يخصّص لي وقتاً غير قليل، ويبذل كثيراً من وقته للإشراف على بحثي ومراجعته! ولم يزل يرشدني، وهو في كراتشي، بالمراسلة، وكان يزوّدني بما يطلع عليه من شيءٍ يخصّ رسالتي وبحثي للدكتوراه، سواء كان ذلك في الكتب حديثة الطبع، والتي كانت تأتيه من العالم العربي (وما أكثرها!)، أو المعلومات الثّمينة المسجّلة في مذكراته أو في ذاكرته (وما أكثرها أيضاً!) ، فكان كلما تذكّر شيئا أو عثر على شيءٍ جديد سارع بالكتابة إليّ ، وكان يلحّ عليّ دائماً أن أكمل عملي بأسرع ما يمكن، وقد كان من بركاته أنني استطعت أن أنتهي من الرسالة خلال سنة ونصف تقريباً!!

ومن جوانب حياة الميمني الخافية المهمّة علمه بالكتاب العزيز وعنايته به، واطّلاعه الواسع على معارفه واستيعابه مفرداته اللغوية، وهذا الجانب من حياته العلمية، له خلفية، وهي أنّ الأستاذ الميمني كان من تلاميذ الشيخ نذير أحمد الدهلوي، الذي كانت له عناية خاصة بالقرآن وعلومه من الإعجاز والبلاغة ومن التّرجمة والتّفسير، وأمّا اهتمام الميمني بالمفردات القرآنية فيرجع إلى ما درس من أضداد القرآن الكريم ومترادفاته خلال تحقيق كتاب ((ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم)) لأبي العباس المبرد، وإضافة إلى ذلك فللميمني عناية خاصة بدراسة علوم الكتاب والسّنّة، حيث تناول جوانبها اللغوية في كثير من محاضراته وبحوثه، ومن الجدير بالذكر أنّ الأستاذ عبدالعزيز الميمني هو أول من اكتشف ظاهرة غريبة تسود كتب الأمالي كلها دون استثناء وانتبه إليها، وهي أن كتب

الأمـالي لأئمـة اللغـة والأدب تبـدأ بمحـاضرة أو بـاب عـن غريـب الحديـث النبوي دائما، كما أنت ترى أنّ أبا العباس المبرد، رحمـه الله، يبـدأ حديثـه في أوّل الكتاب بقوله، بعد الخطبة والتمهيد: قـال رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم للأنصار في كلام جرى: (إنّكـم لتكـثرون عنـد الفـزع وتقلّـون عنـد الطّمع!)(١٢)

وما رأيـت أسـتاذاً مـن أسـاتذتنا أو عالمـاً مـن علمائنـا مطلعـاً علـى مفـردات القـرآن اللغويـة ، كمـا كـان أسـتاذنا الميمـني، رحمـه الله، واسـع الاطلاع عليها كثير الإتقان لها، وقد سألته عن غريب القرآن غير مرّة، فـردّ على كلّ سؤال وكأنه قد استوعب الموضوع وأحاط به، فعلى الرغم من أنه لم يكن يحفظ القرآن الكريم على الطريقة المتداولـة، إلا أنـه كـان كثـيراً مـا يدهشني بما لديه مـن العلـم الغزيـر بالكتـاب وبمفرداتـه اللغويـة، الـتي كـان يحفظها بمعانيها خاصّة، وقد قـال لي غـير مـرة: ((يـا حضـرة الحـافظ! أنـت حفظت القرآن الكريم وأمّا أنا فلم أحفظه، ولكنني أنا أعرف منك بمفرداتـه اللغويـة، وأسـتطيع أن أجـزم القـول عـن كـل كلمـة عربيـة هـل وردت في الكتاب أم لم ترد أو أين وكم مـرة وردت وفي أي سـورة مـن السـور كمـا أسـتطيع أن أبحـث لـك عـن آيـة مـن آياتـه دون الرجـوع إلى المصحـف أو فهارسه!!

وكنا أنا وأستاذي جالسـين يومـاً كالمعتـاد في فنـاء منزلـه نتشـمس ونتحدّث، فإذا بالحديث يقودنا إلى البرد القارس المسيطر على مدينة لاهـور المتشبث بها يومذاك فقلت له: يا سيدي! أمـا تـرى أن وطـأة الشـتاء لأشـدّ ضراوة على الناس هذا العام ، فإننا نراهم يعـانون بسـببها أشـدّ معانـاة ولا يخرجون إلا مغطين في دثر وجبّات؟ فقال: نعم! البرد شديد هـذا العـام! ثـم

تذكر شيئا فقال: قد تذكرت أستاذي الشيخ نذير أحمد الدهلوي الذي نظم بيتاً من الشعر عن البرد القارس وعن هذه الجبات، صدره بالأردية وعجزه بالعربيّة، وهو قوله:

كت كئى دن بركئى رات

جاء البرد مع الجبات!

((ومعنى صدر البيت أنّ النهار قد نقص وقصر، والليل قد ازداد وطال!)).

ورأيت أن الجوّ يلائم سؤالاً، كثيراً ما كان يراودني، فقلت له: يا أستاذي الكريم! ما رأيكم في الشّعر العربيّ لشبه القارة؟ فقال: فيه شعر جيّد رصين لا بأس به، ومن الأسف الشديد أنني قد أغمضت عنه إغماضاً كما أنني أهملت الآداب العربية والإسلامية التي أنتجها علماؤنا في شبه القارّة، وقد كان من حقها، ومن واجبي، أن أهتمّ بها، فأعرّف بها العالم العربي، وأخشى أن يتّهمني مؤرخ المستقبل بالإهمال والترفع عمّا أنتجه أبناء وطني وجلدتي! ثم أخذ الأستاذ ينظر في حيرة إلى السّماء، وقد بدا على وجهه ظلال من النّدم والوجوم!

فقلت له في شيء من الثقة واليقين: لا تحزن يا سيدي! فقد ربيت أجيالاً وأعقاباً من تلاميذك وأتباعك، وقد أعددتهم إعداداً جيّداً لينوبوا عنك بالقيام بما لم تستطع أن تقوم به أنت ، وهم قادرون على ذلك بإذن الله، ومن واجبهم أن يدافعوا عنك! ولكن التّهمة التي يتهمك بها أعداؤك والمعارضون لك إنما هي تهمة الشح والبخل، وقد سمعتهم يقولون وقرأت لهم ما يكتبون قائلين: إنّك تبخل بالمال، وتضنّ بالعلم والكتاب!

فنظر إليّ الشيخ نظرة الغاضب المريب ثم قال: إنهم يكذبون ، ولا يعرفون شيئا من الحقيقة! أنا لست بخيلاً، ولكنني لا أسخو بكلّ ما لديّ من المال والعلم أو الكتاب إلا لمن أراه أهلاً لذلك، ويستحقه استحقاقاً صحيحاً! إلّا أنني لا أريد أن أضيع منه شيئا، فأبيحه لكل من هبّ ودبّ! إنني أنفق مالي لمن يعرف قدره، وقليل منهم!! ولا أبيح كتبي لأدعياء العلم، ولا أسخو بعلمي إلا لأهله، أما سمعت زهيراً يقول:

ومن يصنع المعروف في غير أهله

يعد حمده ذمّا عليه ويندم (١٤)

وذلك مما يذكرنا بما رواه أهل العلم والأدب من قول بزرجمهر بن بختكان الفارسي، وهو يرد على من أراد محنته: ((العلماء أفضل أم الأغنياء؟ فقال: العلماء، قيل له: فما بال العلماء على أبواب الأغنياء أكثر من الأغنياء على أبواب العلماء! فقال بزرجمهر: لمعرفة العلماء بفضل الغنى وجهل الأغنياء بفضل العلم))(١٥)

وقبل أن يلقى ربّه كان الأستاذ الميمني، رحمه الله، قد تبرع بما اكتسب بكده وعرق جبينه من المال، ووزعه على من يستحقّه، فقد تبرع به لمجامع اللغة العربية كمجمع اللغة العربية بدمشق، وتبرع للمعاهد التعليمية والجامعات، فأعطى ثلاث مئة ألف روبية لندوة العلماء في لكنو الهند، وتبرع بمئة ألف روبية لمكتبة جامعة بنجاب بلاهور (تلك الجامعة التي تنكّرله مرتين بعض أساتيذها من أدعياء اللغة العربية، ولم يعترفوا بما فضّله الله به من مكانة علميّةٍ وجحدوا بحقه!!) ثم اشترى كتب الحديث والتفسير بما تبقّى عنده من المال ، فوزّعها على المعاهد الدينية في باكستان وفي

خارجها! وأهدى مكتبته الحافلة بما اقتنى طوال عمره من نفائس الكتب العربية مخطوطها ومطبوعها لجامعة السّند!

وقد أنفق الميمني حياته كلّها في خدمة اللغة العربية وآدابها، بين التدريس والبحث أو التحقيق، وأعدّ الكثير الكثير من البحوث والمقالات باللغة العربية، وقد أحيا تراثها الغالي، فحقق أكثر من ثلاثين كتاباً، وقد نشرت كلها أو جلّها في العالم العربي، واكتسب بها مبلغاً كبيراً من المال كأجور مقابلة لجهوده, وقد قال لي يوماً: ((قد اكتسبت لباكستان بقلمي هذا مبلغاً ضخماً من العملة الصّعبة، مالا يقلّ عن ثلاثة ملايين من الروبيات، وقد استطعت أن أكتسب ذلك المبلغ الضخم، لأنني تعلّمت العربية، وأتقنتها إتقاناً صحيحاً، وقمت بخدمتها خير قيام! وقد أيقنت بأنّ عالم اللغة العربية لا يمكن أن يموت جوعاً وفقراً: لأنّ العربية لغة كتاب ا لله العزيز ولغة العرب الكرام، وا لله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من يحسن العمل، وكذلك العرب الكرام الأسخياء! إنهم لا ينسون فضل من يقوم بخدمة لغتهم، إنهم يقدرون جهود العاملين المحسنين المخلصين! وهذه دور النشر في بلدكم لا يدفع أصحابها للكتاب والمؤلفين شيئاً، ويتركونهم، لا بل يطردونهم ليتضوروا جوعاً ويموتوا فقراً، وأمّا أصحاب دور النشر العربية فإنهم لا يبخسون حق المؤلفين أبداً ! ويكافئونهم بما يستحقون!!

وإن أدعياء اللغة العربية هؤلاء في بلادكم يقولون: تعلمنا العربية ونموت جوعاً وفقراً! ولكنهم يكذبون فيما يقولون! إنهم لم يتعلموا اللغة العربية، وإنما أنفقوا سنواتٍ عديدة في المعاهد والجامعات ليكتسبوا بها قطعة

من الورق يسمونها شهادة! وقد اكتسبوها، وعلى الرغم من ذلك أنهم لم يحصلوا على شيء من اللغة العربية حتى إنّ الحاصل منهم على شهادة الدكتوراه لا يقدر على الحديث أو الكتابة بها حتى ولو كانت جملة واحدة! لأنه قد حاز هذه الشهادة من أوربا من عند المستشرقين، وحضّر الرسالة في لغة من لغاتهم، ولم يذهب إلى جامعة عربية للدراسات العليا، فعاد وقد حصل على كلّ شيء غير العربية! وأقول أنا عبدالعزيز الميمني: إنّ الذي تعلّم العربية فأتقنها لن يموت جوعاً ولن يواجه فقراً أبداً، إنّ الله قد وعد أهل الكتاب بأنهم لو أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والميمني يقول ويعلن على رؤوس الأشهاد بأنّهم أي أدعياء العربية لو تعلّموا لغة القرآن، وأتقنوها حقّ الإتقان لأتاهم الرزق من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن يمينهم ومن شمالهم! وأمّا أنت يا حضرة الحافظ! فأراك لست منهم، وإنك لو مضيت على طريقك هذا من إتقان العربية، كتابة وحديثاً، لن تموت جوعاً، ولن تكون في حاجةٍ إلى طلب الرزق في الآفاق، وسوف يأتي رزقك على بابك))!!

ولقد أصاب أستاذي الميمني، رحمه الله، فيما قال لي ونصح لي به، فقد نذرت حياتي كلّها للغة العربية والنهوض بها في بلدي، وقد وفقني الله في ذلك بعض التوفيق، فقد دخلت مجال الخدمة للغة العربية في جامعة بنجاب (وهي أقدم جامعة في باكستان) وأهلها لا يعرفون كلمة جواز السّفر باللغة العربية فضلاً عن أن يتحدثوا أو يكتبوا بها، بل كانوا يرون أنّ الحديث أو الكتابة بالعربية ليس من واجبهم بل ذلك مستحيل، إذ كانوا يدرسون العربية ويدرّسونها كلغة ميتة كالسنسكريتية، وأمّا اليوم، والحمد لله، فقد أصبحت الأجوبة عن الأسئلة باللغة العربية إجبارية في جامعة

بنجاب نفسها، وتكتب رسائل الماجستير والدكتوراه بالعربية إضافة إلى ظواهر أخرى في مراحل التعليم من نهضة العربية ورفع مستواها في باكستان. وإنّ الله سبحانه وتعالى قد أعزني وأكرمني بما قمت به من خدمة لغة كتابه ولغة شعب نبيه الأبيّ، وأتمنى على الله عزّوجلّ أن يوفقني بالمزيد من الخدمة لها لكي أستمرّ في طريقي هذا ما دمت حيّا!!.

الحواشي

١- الجامع الصّغير في أحاديث البشير النذير: ١/ ٣١.

٢- مجلة المجمع العلمي الهندي: ٤٩

٣- قد ظهرت طبعة الكتاب الأولى في مدينة أعظم كره الهند سنة ١٩١٢م ، والثانية في ١٩٢٧م، وهي التي عثرت عليها واستفدت منها.

٤- والمتوفى ١٣٧٣هـ (١٩٥٦م) من أبرز الندويين الأفاضل وأخصّ تلاميذ الشيخ شبلي وأشهرهم.

٥- راجع مقدمة كتاب لغات جديدة: ١٢ بالأردية.

٦- سورة فاطر: ١٤

٧- راجع مقال الدكتور يوسف عن: ((الميمني كما عرفته)) في مجلة المجمع العلمي الهندي، يونيو ١٩٨٥م.

٨- إحياء علوم الدين: ٢٢٣

٩- حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء (خ) ق٣.

١٠- كتاب القرط على الكامل: ٥

١١- حماسة أبي تمام طبعة الحلبي: ٢٧٣

١٢- وهي: (١) الوحشيات لأبي تمام، (٢) المقصور والممدود للفرّاء، (٣) التنبيهات لعلي بن حمزة البصري.

١٣- الكامل: ٥

١٤- ديوان زهير مع شرح الشيباني: ٤٤٤

١٥- القرط على الكامل: ٤٣٥

(مع الشكر من مجلة الثقافة والتراث، دبئ)